

الفهم والترجمة

د. عز العرب لحكيم بناني

جامعة فاس / المغرب

كيف ظهر مصطلح " الترجمة " في اللغات الأجنبية؟ وما هو التأثير الذي مارسه هذا الاختلاف على فهم معنى الترجمة؟ و هل المعايير التي تحكم على جودة الترجمة مرتبطة بتقديس المضمون و فصله عن الشكل؟ أم تفترض على العكس من ذلك ربط المضمون بالشكل؟ سنحاول معالجة بعض إشكاليات الترجمة و النقل و الأمانة و الخيانة في ضوء التقابل بين الاتجاه المنطقي العقلاني في الترجمة و الاتجاه الرومانسي التاريخي.

مصطلح الترجمة في اللغات الأجنبية :

لقد مر مصطلح " الترجمة " عبر صيرورة تاريخية طويلة قبل أن يستقر استعماله وفق المصطلح المعروف في اللغات الأجنبية و قبل أن يستقر مفهوم الترجمة وفق التمييز بين الشكل اللغوي و المضمون الذهني المجرد. من جهة أولى، كان مصطلح herméneuein الذي يفيد أشياء كثيرة مثل التفسير والتعبير و التأويل يفيد الترجمة كذلك، و بهذه العبارة تم الحديث عن نقل الأنجيل العبرية إلى اللغة اليونانية. و يشير Jean Pépin إلى أن نفس الملاحظة نصدق على اللغة اللاتينية. فقد علب عبر الأجيال استعمال مصطلح interpres للحديث عن " المترجم ". 1. إلا أن مفهوم الترجمة استعمل بصورة

متباينة تفيد التعبير بلسان مبين عن مضامين دينية أو نفسية لغوية أو غير لغوية في ذاتها.

إلا أن مفهوم الترجمة، بالمعنى الدقيق و المتعارف عليه اليوم، يفيد كما يبرز لوهمان ذلك 2 "إمكان حصول تطابق بخصوص المضمون المقصود بواسطة اللغة، بالرغم من تبادل صور التعبير عنه". ويعتقد أن هذه العلاقة الجديدة التي تربطها باللغة ترجع إلى عهد سيسرون Cicero في كتاباته الأدبية و البلاغية. و مع ذلك، لم يستعمل مصطلحا خاصا للإحالة على هذه الظاهرة الجديدة، بل استعمل لذلك عبارات مختلفة مثل: Vertere, convertere, aliquid (Latine) exprimere, adverbium experimere, (Graece, Latine) reddere, verbum pro verbum reddere.

الترجمة والنقل :

لقد أبرز لوهمان كذلك أن المصطلح الذي استعمل بعد ذلك هو مصطلح transferre و لم يظهر مصطلح traduccere إلا في القرن الثاني ب.م. (بواسطة جيلوس). لقد اكتشف الإنسان مع ظهور الترجمة أنه يتكلم لغة بعينها ولم يعد يكتفي بالمحادثة مع أعضاء الجماعة التي ينتمي إليها. بناء على ذلك، ظهر التمييز الواضح بين الترجمة اللغوية traduction و الترجمة الفورية أو النقل interpretari, gr. Herméneuein, allemand. Dolmetschen بواسطة لسان مبين. فالترجمة الفورية أو النقل يظل مرتبطا بمستوى التعبير في ارتباط لصيق باللغة، ما دام لا ينظر إلى الدلالة في معزل عن اللغة (مثل هارون الذي كان لسان موسى عليه السلام، يفك عقدة من لسانه ويشد أزره). أما الترجمة اللغوية في معناها الجديد فقد اعتبرت الدلالة متعالية على اللبوس اللغوي الذي تتخذه، مستندة في ذلك إلى وجود بنيات أساسية في الدلالة داخل

الفهم والترجمة

الجملة أو القضية. و هكذا، ظهرت الترجمة في معناها المعاصر مع ظهور التمييز بين اللغة واللسان و مع التمييز بين العبارة اللغوية و المضمون الفكري المجرد و الموضوعي، و أصبحت الترجمة بهذا المعنى فرعاً من فروع المنطق.

كان الفيلسوف الألماني شلايرماخر (1768-1834) قد قام بدوره بالتمييز بين الترجمة الحقة و الترجمة الشفوية. فالمترجم بالمعنى الفرنسي أو الألماني interprète, Dolmetscher " هو الذي يمارس مهمته في مجال الأعمال، بينما يؤدي المترجم الحق مهمته على الوجه الأكمل في مجال الفنون والآداب ". 3

فالترجمة في المعاملات الاقتصادية تعتمد على الأداة الشفاهية و تكتفي بنقل المعنى من لغة إلى أخرى. أما ترجمة الفنون والآداب فهي ترجمة نصوص تتخذ في الغالب صورة نصوص مكتوبة. لكن يوجد فرق أساسي بين الترجمة الفورية الداخلة في مهنة المترجم المحلف و الترجمة الفنية في صورتها الأدبية. " كلما ظل الكاتب خلف الأضواء في النص الأصلي، و لم يتصرف إلا باعتباره عضواً يتلقى الموضوع بصورة لاإرادية، و كلما ظل خاضعاً لمقتضيات الزمان والمكان، إلا و تعلق الأمر في الترجمة بمجرد نقل blosses Dolmetschent, simple truchement. و هكذا، يقترب مترجم مقالات الصحف أو مترجم وصف الرحلات من المترجم الفوري interprète وسيكون من المضحك .. أن يلتزم بتحصيل منزلة الفنان. بالمقابل، كلما هيّمت على الكاتب طريقته الخاصة في العرض و في الربط، كلما اتبع الكاتب نظاماً اختاره بنفسه أو كان محكوماً بانطباعه، كلما مال عمله إلى الارتقاء إلى المجال السامي للفن، وهنا سيكون من واجب المترجم أن يطبق بالمثل على عمله قوى أخرى ومهارات أخرى على خلاف ما يقوم به المترجم الفوري، كما سيكون من واجبه

عز العرب لحكيم بناني

التعرف بطريقة أخرى على الكاتب و على لغته.4" إن التمييز بين الترجمة الفورية والترجمة الفنية تمييز في الحقيقة بين مجرد النقل و بين الترجمة بما هي كذلك. لكن كلا الترجمتين قد تكونان أمينتين و وفيتين بالمعنى المشترك دون أن تكونا معا من طبيعة فنية متماثلة. من هذه الزاوية الأسلوبية المقارنة، يميز جان- بول فيني (Jean-Paul Vinay) و جان دارلني (Jean Darbelnet) " بين 'طرائق' مختلفة للترجمة، و هي: 'التكلف' و 'المحاكاة' و 'المطابقة' وتنتمي إلى الترجمة الحرفية، ثم 'النسخ' و 'التعديل' و 'الاقتباس'، وتنتمي إلى ما يدعونه ' الترجمة المنحرفة' (la traduction oblique)، أي تلك التي تستعمل فيها لغة الوصول وسائل لغة الانطلاق، و هي الترجمة الحرة.5"

الأمانة و الخيانة :

لكن المشكلة المحورية التي ظلت تنصدر الواجهة هي مشكلة الأمانة: هل يجب على المترجم أن يكون عبدا للنص الأصلي أم يجب عليه تجنب الحرفية؟ ما الذي يتوجب على المترجم فعله حتى لا يخون النص و حتى يتفادى شرك الحرفية السمجة وإغراء الترجمة المزخرفة؟ إن الإشكاليات التي طرحها جورج موان ظلت مرتبطة بمشكلة الأمانة و الخيانة، و بطريقة الترجمة وفق ما يسميه 'الزجاج الشفاف' و 'الزجاج الملون'6.

لكن إشكالية الأمانة و الخيانة مرتبطة بمشكلة لم تظهر إلا داخل صيرورة طويلة الأمد، وهي مشكلة الحفاظ على معنى موضوعي واحد يشترك فيه النص الأصل و النص الهدف بالرغم من تباين أشكال التعبير في اللغتين. و وجود معنى موضوعي خارجي يعني في هذا السياق الانتفال التدريجي من المعنى المحايث sens immanent داخل اللغة إلى المعنى المفارق sens

transcendant. يذكر لوهمان أن هذا الانتقال ظهر لأول مرة في اللغة اللاتينية. مشكلة الأمانة و الخيانة لم تظهر إلا عندما انفصلت اللغة ككيان مجرد عن صيرورة الكلام و المحادثة وظهر المستوى الدلالي كمستوى منطقي مجرد و تم تمييز الوقائع و وقائع الحال عن الموضوعات القصدية و عن موضوعات أفعال القلوب عبر صيرورة تاريخية متدرجة انتقلت من المحادثة بين أعضاء الجماعة إلى تعميم التواصل داخل بنية القضية كما شهدت اللغة اللاتينية، و أصبحت اللغة التاريخية مكبوتة داخل بنيات منطقية مجردة داخل نظام الجملة أو القضية الجمالية. و عليه، ظل هاجس الترجمة متصلا بفصل المضامين الفكرية المنطقية Gedanken عن البنيات اللغوية التاريخية. و هذا ما نلمسه بصورة صورية لدى فريجه واضع أسس المنطق الرمزي.7 كما ظلت مشاكل الترجمة منحصرة في فحص الخصوصيات الأسلوبية دون تدخل في المضامين. من هذه الزاوية المنطقية العقلانية، انبنت إشكالية الترجمة على تقديس المضمون و على حصر المعالجة اللغوية في دراسة الأسلوب و خصائص الاقتصاد و الطرق التكوينية في بناء المعجم، حيث تم التركيز مثلا على دراسة :

1. الخاصية الوصفية في أسلوب الإحالة المعجمية، حيث نستعمل أفعالا أو أسماء ذات حقول دلالية متباينة، وهذا، ما يسمح لنا بفهم مرجع الإحالة اللغوية عند استعمال ثنائيات ذات حقول دلالية مختلفة: يأكل/ يفترس، Bouche/gueule,essen/fressen.
2. خاصية الكثافة في البنية التركيبية و القائمة على الاقتضاء و الحذف و الإضمار: "وأسأل القرية".
3. خاصية المجاز والاستعارة المتمثلة في إعطاء المعنى القديم دلالة جديدة داخل الجملة، بحيث تحيل الجملة الحاملة لمعاني متافرة على معاني جديدة مقبولة.

الترجمة بين العقلانية و الرومانسية :

حينما كانت إشكالية الترجمة إشكالية منطقية عقلانية تهروم تقديس المضمون مع التدخل الكامل و المشروع في الشكل، أصبح من واجبه مراعاة الأسلوب الوصفي في اللغة الأصل و لغة الوصول و مراعاة بنية الكثافة وصيرورة المجاز و الاستعارة.8

لكن التصور الذي يضاد التصور المنطقي العقلاني و يؤكد على التدخل بين فهم اللغة والفهم المضمون هو التصور التاريخي الرومانسي. فهو لا يجعل اللغة مجرد مناسبة عارضة و غير ضرورية لعرض الأفكار، و إلا لن تكون الترجمة الحققة مختلفة عن ترجمة المقالات الصحفية ومذكرات الرحلات وأحوال الطقس. لا يقتصر الفهم على المرور من جسر اللغة إلى الأفكار وفق صيرورة منطقية، بل يتوقف عند اللغة ذاتها باعتبارها ينبوع الذي تتشكل الأفكار داخله وتنصهر فيه. " و بما أن اللغة كائن تاريخي، لا يوجد وعي بالمعنى الحقيقي للغة دون وعي بتاريخها. لا تولد اللغات من عدم. و سيكون من العبث الاشتغال عليها و من داخلها بطريقة اعتباطية خالصة. إن اللغات تكتشف شيئاً فشيئاً، و العلم و الفن هما القوتان اللتان تنميان وتستكملان هذا الاكتشاف.9"

إن الهدف من الترجمة ليس هو التخمين فيما كان سيفعله الكاتب لو أنه كتب في الأصل بلغة الترجمة و إن هذا المسعى لا يقبل التحقيق، و هو فضلا عن ذلك فارغ و سلبي، " إذ أن من يقر بالقوة التكوينية للغة Bildende Kraft der Sprache بالصورة التي تظهر في تطابقها مع الخصوصية التي تميز الشعب، مطالب بالاعتراف بأن اللغة تساهم في تشكيل المعرفة، كما تساهم في طريقة عرضها لدى الأشخاص المتميزين، كما يلزم بالاعتراف بأن لا أحد من الناس مرتبط ببلغته بطريقة آلية وخارجية.10 وفق التصور العقلاني، تتمثل

مهمة الترجمة في الفصل داخل اللغات بين الشكل و المضمون، مع التأكيد على وحدة المضمون مع اختلاف الشكل. وفق التصور التاريخي الرومانسي، تتمثل مهمة الترجمة في إقامة جسور بين لغة الانطلاق ولغة الوصول، دون تجاهل التلاحم الموجود بين الفكر و أشكال التعبير اللغوي عنه. فاكشاف العلاقة، الاعتبارية بين الدال والمدلول و قيام الدلالة على العلاقة الاختلافية بين الفونيمات، جعل مفهوم الفونيم أو الصوت أصغر وحدة دالة تنتظم بنيات الدلالة في علاقة متوازية معها. لكن التأكيد على تاريخية اللغة جعل بنية الأصوات أو الفونيمات ذاتها تتحول إلى ظاهرة متأخرة و لم تعد معيارا أساسيا لفهم تاريخية الفهم و التأويل اللغويين.

لقد أقام شلايرماخر تعارضا بين طريقتين مختلفتين في الترجمة: - إما أن يتجنب المترجم إزعاج القارئ قدر الإمكان و أن يحمل القارئ على الالتقاء به،- و إما أن يتجنب إزعاج القارئ قدر الإمكان و أن يحمل الكاتب على الالتقاء به. 11 الحل الأخير يفترض جدلا كما لو أن الكاتب الأصلي قد نشر عمله باللغة الأجنبية، مما يعني أن عمله، مهما كان جديدا، مألوف في اللغة الهدف، ما دامت المصطلحات و الإشكاليات الواردة فيه تجد مقابلاها المناسب في اللغة الأجنبية. معنى ذلك أن المترجم العربي يعيد إنتاج نفس المضامين التي كان الكاتب الأصلي سينتجها لو كان عربيا. يتجاهل مثل هذا التصور أن المصطلحات التقنية أو الأدبية التي يستعملها الكاتب الأصلي مرتبطة بتاريخية اللغة الأصل، كما أنها مرتبطة في علاقة تداخل و تتأص مع مختلف أجزاء الثقافة الأجنبية. لذلك، يفضل شلايرماخر الاختيار الأول الذي ينص على عدم إزعاج الكاتب قدر الإمكان و حمل القارئ على الالتقاء به. عندما نترجم النص الأجنبي إلى اللغة الأم المألوفة، لا ينبغي صهر العنصر الغريب داخل المكونات المألوفة، بل يجب تحسيس القارئ بعنصر

عز العرب لحكيم بناني

الغربة الوارد داخل النص الأجنبي. لا يقوم التواصل بين اللغات على مبدأ إزالة الفوارق الثقافية، بل الاستفادة من الغربة و على تحويلها إلى متعة جمالية.

الهوامش:

1- Pépin Jean : L'herméneutique ancienne. Les mots et les idées. P. 295. In: Poétique de théorie et d'analyse littéraire. 23, Seuil 1975.

2- Lohmann Johannes : Philosophie und Sprachwissenschaft. Reihe Erfahrung und Denken. Band 15: Dunker & Humblot / Berlin 1964. P.85

3- Schleiermacher Friedrich : Des différentes méthodes du traduire et autres texte. Traduits par A. Berman et C. Berner . Bilingue Allemand-Français. Editions du Seuil 1999. P.33

4- Ibid , 34

5- J.P Vinay & J.Darbelnet, Stylistique comparée du français et de l'anglais: méthode de traduction, 1977, Paris, Didier.

6- Mounin G. Linguistique et traduction. Bruxelles, Dessart/ Merdaga

1976 Mounin G. Les Belles infidèles. Paris, Cahiers du Sud 1955.

7- Frege G. Funktion, Begriff, Bedeutung. Hs. Günter Patzig. VR Kleine Vandenhoeck- Reine: Göttingen 1994 .

8- عز العرب لحكيم بناني: في منهج الترجمة و مناهج الفهم. كتاب:

الترجمة و التأويل: منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية، الرباط 1995.

9- Schleiermacher F. Op. Cit. 57-59

10- Ibid. P. 74-75

11- Ibid , 48-49.